الزهد
تقييد، ام تحرير

بقلم الشيخ مرتضى المطهري طهران ترجمة الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي قم

من فلسفة الزهد : الحرية والتحرر ، فأن بين الزهـد والحرية روابط قديمة وقويمة ، فان الحاجة والافتقارميزة ظاهرة ، والاستغناء ميزة الحرية ، ان اقوى الامال فى احرار الحياة هي وضع الأثقال عن كاهلهم ، والخفة فى الحركة والتنقل ، وانما يجعل هؤلاء زادهم الزهد ، والقناعة ليقللوا بذلك حوائجهم المادية فيطلقوا أنفسهم من اسر الاشياء ، والاشخاص وقيودهما .

ان حياة الانسان المادية ـ كسائر الحيوانات الاخرى ـ تحتاج الى سلسلة من الامور الطبيعية، والضرورية التي لابد منها كالهواء للتنفس،والارض للسكن، والطعام للاكل، والماء للشرب والثوب للستر ، فالانسان لا يستطيع ان يكتفي بذاته على حد تعبير الحكماء عن هذه الامور وأمور اخرى كالنور والحرارة ولا أن يتحرر من قيودها تحرراً مطلقاً .

ولكن هناك سلسلة من الحاجات ليست طبيعية ولا ضروريه ، وانما حملت على

www.noormags.com

الانسان على مدى تاريخه الطويل من قبله هو، او من العوامل التاريخية والاجتماعية الاخرى ، وقد كانت عاملا فعالا فى الحد من حريته شيئاً فشيئاً .

والامور التي تحمل على الانسان من الخارج بصورة جبرية كالاضطرار السياسي مثلا ليست فى خطرها عليه كالامور النفسية التي تعمل على أن تجره من اطاره الداخلي الى اطارها الغريب ؛ فان اخطر القيود على الانسان انما هي هذه القيود التي تعزله عن نفسه .

والفلسفة الميكانيكية لهذه العوامل التي تؤدي الى عجز الانسان وضعفه ترى : أن الانسان يحاول من جهة ان يكسب حياته صفاء وبهاء ، ورونقاً وجلالا ، فيقبل على التجمل والتنعم بكماليات الحياة ، ولاجل الحصول على القوة والقدرة يقبل على تملك الاشياء، ومن جهة اخرى فانه يعتاد على وسائل للتنعم والتجمل والقوة والقدرة شيئاً فشيئاً ويعجب بها فيعشقها فتنشأ بينه وبينها روابط خفية دقيقة تشده اليها فيصبح ذليلا لها عاجزاً امامها ، وحينها يتحول الشيء الذي كان مادة لصفائه ورونقه فيصبح سبباً لذهاب رونقه وصفائه، والذي كان وسيلة لقدرته وقوته فى عالم الطبيعة فيصبح سبباً لضعفه وعجزه فى دخيلة نفسه ، تماماً كالعبد المدين لمولاه لا يقدر أمامه على شيء مما اكتسبه بنفسه .

ان تقيد اي انسان بالزهد ـ ان صح التعبير بالتقيد ـ نابع من اصول فطرية ، فان الانسان بحكم فطرته الاولية يميل الى تملك الثروة والاستفادة من متع الحياة ولكنه حينما يرى أن هذه الاشياء كلما اعطته القدرة على الحياة فى الظاهر سلبته القدرة الارادية بنفس النسبة فى واقع الامر ، وجعلته كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام : «عبداً لها ولمن فى يده شيء منها» فهو يثور على هذه العبودية، فتسمى هذه الثورة على عبودية الحياة ـ فى الاصطلاح ـ زهداً .

ولقد غنى الكثير من شعرائنا العرفاء بالحرية كثيراً ، حتى قال كبيرهم الخواجه حافظ الشيرازي عن نفسه: «اني أعد نفسي عبداً لمن كان متحرراً من زخارف الحياة وألوانها» وهو يغبط شجر الصنوبر فى «اعتداله وتحرره من هموم الحياة» وهم

www.noormags.com

بذلك يعنون : التحرر عن التقيد بعلائق الحياة ، وعدم اغترارهم بها .

بقي علينا أن نقول : ان التحرر التام يحتاج الى شيء آخر ايضاً غير الانقطاع عن علائق الحياة ، فان القيود التي تربط الانسان فتذله وتعجزه ليست العلائق المادية فحسب بل ان الاعتياد الروحي والجسمي على الكماليات التي وجدت اما لزينة الحياة الدنيا ورونقها ، او لاعطاء القوة والقدرة على الحياة قد تصبح بالتكرار كالطبيعة الثانية . . هذه الامور وان لم تكن مورداً للعلاقة القلبية ، بل حتى وان كانت وسيلة للتعالي الروحي ، فهي تعد قيوداً أقوى لاسر الانسان ، بل انها تذله وتعجزه اكثر من غيرها .

تصوروا عارفاً صوفياً متقشفاً لم يتعلق قلبه بشيء من الدنيا ولذائذها ، ولكنه قد اعتاد الشاي والسيكاير والترياق او الافيون او الهيروئين مثلا حتى اصبحت هذه له كالطبيعة الثانية بحيث أن تخلف عنها قد يهلك ! ! هكذا رجل كيف يمكن له أن يعيش حراً متحرراً ؟ !

ان انعتاق القلب من علائق الحياة شرط أساسي في التحرر ، ولكنه ليس بالشرط الكافي ، بل ان اعتياد القدر الاقل في الاستفادة من نعم الحياة حتى الحلال منها ، والحذر من الاعتياد على القدر الاكثر شرط اساسي آخر في الحرية والتحرر .

يصف الصحابي الكبير «أبو سعيد الخدري» رسول الله صلى عليه وآله فيقول انه « كان صلى الله عليه وآله وسلم خفيف المؤنة » يعني أنه (ص) كان قليل المصارف ، يستطيع أن يعيش بأقل مؤنة ممكنة ، ولكن هل تعد هذه فضيلة في جانب مادي اقتصادي مثلا ؟ الجواب : اما لا ، او انها على اقل تقدير ليست بفضيلة هامة ، ولكنا اذا لاحظناها من الناحية المعنوية أي من ناحية التحرر عن علائق الحياة فالجواب : نعم انها فضيلة كبرى لانها هي الخصلة الوحيدة التي باحرازها يستطيع الانسان أن يعيش حراً خفيف الجناح ، يتحرك بنشاط وبحرية ويكافح بخفة ومرونة .

وليس ثقل الكاهل بقيود الحياة منحصراً بالعادات الشخصية والفردية بل ان العادة والمراسيم العرفية كمراسيم ملابس الحفلات والاداب الاجتماعية من سفر وغيره

www.noormags.com

ايضاً مما يثقل كاهل الحياة ويبطيء الحركة الحرة فيها .

ان مثل الحركة فى الحياة كمثل السباحة فى الماء ، كلما خف الكاهل سهلت السباحة ، وكلما ثقل الكاهل صعبت السباحة واحتمل خطر الغرق ، يقول كاتب فارسي كبير : « انزع ملابسك ، ثم اسبح فى حوادث الحياة ، فان العرى أول شروط السباحة» ويقول الشاعر الفارسي (فرخي اليزدي) «ان الرجل المنقى لايشتكي الجوع والعرى ابداً، فان السيف الصقيل أجدر به أن لايغمد» ويقول الشاعر الفارسي الاخر (باباطاهر) مخاطبا نفسه: «انك تمشي على الارض وانت بامكانك ان تمشي على السماء ، فان امكنك فانزع جلدك ليخف ظهرك » .

ويقص علينا الكاتب والشاعر الايراني الكبير (سعدي الشيرازي) : فى كتابه (گلستان) قصة تناسب المقام يقول : « رأيت ابن الناجر يباهي ابن الفقير بقبر والده فيقول : » ان صندوق القبر كبير عليه كتابة ملونة وأرضه مفروشة بالرخام ، وعليه قبة كالفيروزج ، فماذا على قبر والدك غير حفنة من التراب وحجر ومدر ؟ وأصغى ابن الفقير له ثم قال ولكن قبل ان يتحرك والدك من قبره الثقيل يصل والدي الى الجنة» .

هذه كلها أمثال على خفة الكاهل وأنه الشرط الاساسي فى الحركة والنشاط ، وانما انطلقت الحركات والمنشورات والمكافحات القوية والمستمرة على ايدي اناس غير متقيدين بالقيود الدنيوية الثقيلة ، او بتعبير آخر : زاهدين بمعنى من معاني الكلمة زهد (غاندي) فى الراحة واللذة والشهوة والطعام اقلق راحة بريطانيا العظمى فى اوج عظمتها وأجبرها على التواضع له ! ! ولم يترك (يعقوب بن الليث الصفاري) طعامه (الخبز والبصل) حتى اوحش الخلافة العباسية الكبرى ! ! ، والفيتكونغ اليوم مدينة فى انتصاراتها لـ (خفة المؤنة) فيستطيع الفيتنامي أن يكتفي بحفنة من الرز ويعيش يكافح فى مكانه اسبوعاً كاملا ! !

وهل هناك من الزعماء السياسيين أو المذهبيين من استطاع بالتنعم والبذخ وطيب المأكل والمشرب ان يصبح نقطة انطلاق فى التاريخ ؟ ! ام اي مؤسس دولة استطاع باللذة والشهوة أن ينقل السلطة من سلسلة لاخرى ؟ !

www.noormags.com

وانما اصبح علي عليه السلام حراً بمعنى الكلمة لأنه كان زاهداً بمعنى الكلمة وهو عليه السلام كثيراً ما يعبر في خطبه في (نهج البلاغة) عن الزهد بالحرية والتحرر ، وعن الشره والنهم بالعبودية ، يقول فى بعض قصار كلماته : (الطمع رق مؤبد) ، ويصف زهد عيسى بن مريم فيقول : (ولا طمع يذله) ، ويقول فى مقام آخر (الدنيا دار ممر لا دار مقر ، والناس فيها رجلان، رجل باع فيها نفسه فأوبقه ورجل اشترى نفسه فأعتقه) واصرح من الكل كتابه الى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف) ويقول فى آخره «اليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخاطبك،وأفلت من حبائلك، اعزبي عني فوالله لا اذل فتستذليني،ولا أسلس فتقودينى»

نعم ان زهد علي عليه الصلوة والسلام ثورة على الذل فى اللذة ، وثورة على الضعف فى الشهوة وعصيان لعبودية الدنيا ونعمتها ، فالسلام عليه يوم ولد فى الكعبة ويوم قتل فى محرابه ، ويوم يبعث حيا .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حقيقة الزهد

الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا اضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا ألا تكون بما فى يديك أوثق منك بما فى يد الله وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أنت أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها ابقيت لك .

الرسول الاعظم (ص)

www.noormags.com